

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على أفضل وأشرف خلقه محمد بن عبد الله
وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

العلامة محمد يحيى الولاتى - سيرته ومآثره

الأستاذ حسنى بن الفقيه

المولد والنشأة:

هو محمد يحيى ولد محمد المختار ولد الطالب عبد الله بن أحمد حاج، سليل أسرة علم وأدب تعرف بأهل ابو (ابو لقب جد الأسرة الطالب عبد الله)، تنتمي إلى قبيلة أولاد داود المنتسبة إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه.
كان رحمه الله مالكي المذهب أشعري المعتقد، تجاني الطريقة¹.

¹ كان تصوفه تصوف العلماء العارفين، وهو المعروف بشدة النكير على مخالفى السنة المحمدية الطاهرة و قوة الرد على البدع التي تنتشر في كثير من الأوساط الطرقية كلبس الخرق والأسمال وعقد حلقات الشطح والغناء والتواجد، وبدعة التقرب للأولياء بالدبح عند قبورهم. وله في ذلك فتاوى مبنوثة في الرحلة وفي مصنفات أخرى مختلفة (انظر قائمة مؤلفاته في آخر هذه التقديم).

وقد اشتهر في زمانه بلقب الفقيه، علما انصرف إليه غلبة، بينما عرف خارج موطنه. محمد يحيى الولاتى، نسبة إلى مدينة ولاته التي ولد بها سنة 1259هـ-1843م، وفيها توفي سنة 1330هـ-1912م. وهي مدينة تقع في الجنوب الشرقي من موريتانا. ويعود ارتباط اسمه بهذه المدينة لشهرتها التاريخية شمال الصحراء وجنوبها كمحطة من محطات القوافل عبر الصحراء ومنارة علم ومعرفة قبل أن يبدأ مسار انحطاطها في القرن 15م ويصيبها الوهن ويهجرها العديد من سكانها مع نهاية القرن 18م².

عاش يتيما ترعاه أمه «العزيزة» في بيت أخواله أهل الحاج بيانه. وكانت رحمها الله تعالى حريصة -كغيرها من الأمهات الأصيلات في هذا القطر- على أن يبلغ ولدها من الشأو مبلغ ما وصل إليه أجداده، متمثلة تلك القناعة الراسخة لدى الأهل، بأن الشرف الحقيقي هو شرف العلم والدين لا شرف الأصل والمحتد. فهم يؤمنون بصدق بأن «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه...» كما قال الصادق المصدوق عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم، ويدركون بأن آصرة العلم والدين هي الأقوي من بين الأواصر كفاة، وأن عروقتها هي الأوثق من بين العرى قاطبة، وأنها الأدعى للتوطيد والتثبيت منها جميعا.

ويعبر والدنا الفقيه بن سيدي محمد (توفي سنة 1984) شمله الله بواسع رحمته وغفرانه، عن هذا المعنى في مقدمة نظم كان بصدد إنجازهِ لكتاب آخر لمحمد يحيى موسوم بـ "تمهيع الرشد والصواب لمعرفة مصطلح حديث النبي الأواب"، بقوله:

وما انتسابي له³ فخرا ولا
تعاظما بفضله أو اعتلا
لكنه تحدث بالنعمة
أن كنت نجل قانت وأمه

² الساس ولد اب، الإنتاج الشعري للعلامة محمد يحيى الولاتى، جمع وتحقيق، مذكرة نهاية الدراسة بالمدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، نواكشوط، سنة 1984-1985- ص 11

³ يعنى جده محمد يحيى الذي نعرف به هنا.

إذ واضح أن نسيب الدين هو القريب لا نسيب الطين
فأي فصل في الصلاح قد تبع لأصله الصالح فاز وانتفع

فلعل الله العلي القدير أن يعيننا بفضلته على التأسي بهذا الأصل الصالح وأن لا ينتزع
البركة من هذا البيت إلى يوم لا ينفع المرء إلا عمله المقبول بفضل الواحد الأحد أهل
التقوى والمغفرة.

هذا ما أدركنا عليه الأهل، وهذا ما كانت العزيزة تدرسه حق الإدراك وتصر على
أن لا تشذ عنه في تربية فلذة كبدها، فحرصت على أن توفر له كل الشروط التي
تؤهله لأن يبقى موصولا بمجد آبائه الأبرار الذين لم يدرك منهم أحدا.
وهكذا فكرت، اقتداء بسنة حميدة درج عليها القوم، في أن ترسله إلى خارج ولاته
لتلقى العلم. وما كان ليثنيها عن نيتها تلك إلا إشارة أحد الصالحين عليها-على حد
ما بلغنا من رواية متواترة- بأن ولدها سيتبحر في العلم دون أن يرح مدينته.

ويشاء الله بلطفه أن يتهياً لولدها من الأسباب ما تقر به عينها، فيمده بذكاء خارق
وحافظة قوية وسرعة فهم فائقة، ويجب إليه الجد والمثابرة، ويجعله فوق كل ذلك برا
بوالدته عطوفا على أخواته اليتيمات. فقد كان يقول عن نفسه: إنه ما قرأ شيئا يريد
حفظه إلا حفظه وما حفظ شيئا ونسيه⁴. ويقول أحد أشياخه -حم اسر المحجوبي-
عن سرعة فهمه: "أنا أقرئه اللقب وهو يقرؤني المعنى"⁵، كناية عن سرعة استيعابه
للتصوص، حتى لكأنه يعرف معانيها مسبقا، ولا يحتاج إلا لمعرفة الألفاظ
والمصطلحات. واشتهر عنه قوله إن ضوء النهار نعمة أعز من أن تستغل في غير قراءة
الكتب.

ومن آيات ذكائه كذلك ما وقع له مع أحد زملائه في الدراسة، إذ اتفقا في بداية
دراستهما متن الشيخ خليل على أن يكونا دولة (يكتبان نفس الدرس اليومي

⁴المصدر السابق، - ص 13

⁵ المرواني بن محمد المختار بن أحمدادو، ورفقات مخطوطة في التعريف بمحمد يحيى

ويتعاونان على استظهاره وعلى الإحاطة بتفسيره)، لكن محمد يحيى كاشفه حين بلغا منتصف المتن أنه أكمل النص كله، لأنه في الحقيقة كان يتخذ لنفسه لوحا إضافيا يكتب فيه ضعف ما كان يكتب مع دولته.

هذا بالإضافة إلى توفيق الله له، لقاء بره والدته ووعيه بمسؤولياته تجاه أخواته اليتيمات، إلى امتهان نسخ الكتب مقابل أجر يعينه على نفقتهم. فكان له على إثر ذلك من الخير ما أراد وزيادة تفتح في المدارك وتوسع في الاطلاع على مختلف فنون العصر، وتمرن على الكتابة وأسلوب التأليف..

الدراسة والتدريس:

ولقد حفظت لنا الرواية أسماء بعض أشياخ محمد يحيى، وضنت بالبعض الآخر، إما لأنه غير موجود أصلا أو لأن دوره في تكوين الرجل - وهو المعروف بإجلال معلميه والمداومة على الحديث عنهم - لم يكن ذا بال.

ويبقى أدق ما وقعنا عليه في هذا الموضوع هو ما ورد في ورقات مخطوطة⁶ كتبها أحد تلامذته الملازمين له، هو المرواني بن محمد المختار بن أحمد⁷ (1291هـ - 1365هـ)، الذي ذكر أنه درس على مولى للمحاجيب يدعى محمود القرآن الكريم، وعلى الإمام بن حم اسر المحجوبي علم المعقول وعلم الأصول وجزءا من نص الشيخ خليل والجزء الآخر منه على بيكر بن أحمد معلوم الداودي ثم البرداوي.

⁶المصدر السابق

⁷ أخذ عن محمد يحيى الولاتي مذهبي الإمام مالك وأبي حنيفة، وأجازته في الصحاح الستة، وكان له مجلس للحديث كل يوم بين صلاة العصر والمغرب حضره جمع غفير من العلماء. وقد أجاز في الحديث من مشاهير علماء المنطقة: الشيخ المحفوظ ولد بي المسومي، محمد الأمين ولد باريك، محمد جد ولد محمد الأمين و ابراهيم بن الصغير وقال بن اعل بان، ابو بن جودتي (انظر سيداتي ولد بابيه، ولأنة من الحاضر إلى الماضي، ص 46) .

غير أن الراجح لدينا أنه كان يتردد على أكبر علماء مدينته من المحاجيب خاصة دون أن يلتزم حلقة أي منهم. إذ لم يكن لطالب علم ومتطلع للتعمق فيه مثله أن تفوته حلقات علماء المحاجيب المعروفين بكوفهم « المؤسسين لسبعة مدينة ولاته دينيا وثقافيا بتفرغهم للعلم وتفانيهم في خدمته »⁸.

أما تلامذته فيورد الرواى قائمة بهم تضم إلى جانبه هو وأخويه الدعوين أحمد بن محمد المختار ولد أحمدادو وبانمو، كلا من محمدي بن سيدي عثمان (توفي سنة 1337هـ)⁹، ابائي بن عبد الله بن سيد أحمد بن أبي كف المحجوبي 10 ، سيد المختار بن آل بيكر، عثمان بن الطالب صمب، سيداتي بن الكنتي، الجليل بن أحمد ابيسىف البيسىفي، اباه بن زهو العين، سيدي محمد بن عابدين وحمود بن اعل بن عيسى. ومن باب قاعدة أن تلميذ التلميذ تلميذ يضيف الرواى إلى القائمة العالم الفاضل محمد يحيى بن سليمه الذي يقول إنه أخذ عنه- عن الرواى- إجازة الحديث التي أخذها هو أصلا من محمد يحيى.

⁸الساس بن اب، ص 4

⁹ كان عالما ورعا عابدا، منقفا في سبيل الله، بنى لطلبة العلم الذين كانوا يؤمون محظرتة من كل البلاد دارا لازالت إلى اليوم تدعى دار التلاميذ، حيث كان يؤويهم ويطعمهم ويكسوهم مجانا.

¹⁰ سيد أحمد بن أبي كف المحجوبي، عالم جليل توفي سنة 1275هـ، ويبيدي محمد يحيى إعجاباً خاصا به دون غيره من علماء ولاته، ويقول في ذلك الساس ولد أبي الصفحة 12 من مذكرته (المصدر السابق) إنه « الشيخ الوحيد من شيوخ محمد يحيى الذي وجدت له ذكرا في بعض مؤلفاته ويصفه فيها بأنه أعلم أهل ولاته في زمنه وأعدلهم » ويعضد ذلك ما قاله عنه الطالب بيكر بن أحمد المصطفى المحجوبي الولاى المتوفي سنة 1917م في كتابه (منح الرب الغفور في ما أهمل صاحب فتح الشكور، مخطوط) : « كان رحمه الله من العلماء النجباء الأذكياء الأتقياء جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة... وكان جيد النظر حسن الفهم تأقّب الدهن ذا جد واجتهاد في العلم، أفنى عمره فيه، كثير المطالعة مع ما بعينيه من الوجد الدائم وما ترك مطالعة الكتب حتى توفي رحمه الله تعالى ».

2 - جوانب من سيرة الرجل ومواقفه:

لم تلبث مثابرة محمد يحيى ومؤهلاته الفطرية المنوه بها أنفا أن آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا، فإذا به يحفظ القرآن الكريم مبكرا، وينظم معاني الحروف من مغني اللبيب وهو في السنة السابعة عشرة من العمر، ويشرح في نفس السن تقريبا منظومة السيوطي في البيان، ويشرح وهو ابن خمس وعشرين سنة "مراقي السعود" للعلامة سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم. لتتوالى بعد ذلك مؤلفاته في كل فنون المعرفة الدينية واللغوية، بحيث لا يخلو مجال منها من إسهام له فيه معتبر.

وما كان الرجل في تميزه هذا بدعا من أبناء وطنه الذين تحدوا بتفانيهم في طلب العلم ونشره عوائق ذلك الزمان الذي لم تكن فيه مكنتات عمومية تتعهد ولا مطابع تلفظ الورق والمنشورات ولا كهرباء تحيل ظلام الليل الدامس نهارا أبلج ضاح. كان سلاحهم الأمضى هو الإيمان الراسخ بنبل المسعى يخالطه عزوف عن الدنيا وما فيها من متاع الغرور، ويسندهما طمع فيما وعد الله به السالكين سبيل العلم من تسهيل الطريق إلى الجنة. ومثل هؤلاء الرجال ينسأ المولى عز وجل لهم في الأثر ويمدهم بجزبل لطفه، فهو الذي يرزق كل إنسان على قدر همته.

وهل من همة أسمى وأنبى وأدعى لجلب رضى الله وتوفيقه من تلك التي يعكسها استغلال الولاى لأوقات يومه؟

إن في جدولته لساعات يومه، كما وردت في ورقات المرواني التي ألعنا إليها أنفا، ما يقدم الجواب الشافي على هذا التساؤل، حيث يقول المرواني بهذا الشأن: "وأما شغله في اليوم فمن صلاة الصبح إلى أن يحل النفل شغله التسييح والتحميد والتهليل، فإذا حل النفل صلى ثماني ركعات للضحى ثم يأخذ دلائل الخيرات فيختمه، ثم يشتغل بتعليم التلاميذ، ثم فصل الخصوم حتى إذا قرب من نصف النهار دخل بيته واشتغل بالتأليف. فإذا دخل وقت الظهر تجتمع عليه الجماعة الذين يصلون معه فيصلون بهم الظهر مع أربع قبلها وأربع بعدها، ثم يشتغل بالتأليف إلا إذا جاءه خصمان ترك

التأليف وأقبل عليهما وتبصرهما وقضى بينهما. فإذا دخل وقت العصر صلى أربعاً قبلها ثم صلاها بالجماعة ثم يأخذ مختصر البخاري ويأخذ أحد منا ابن حجر وآخر القسطلاني فيقرأ ما تيسر منه، وكل حديث يقرأ ما قال فيه الفقهاء من تأويل أو إطلاق أو تخصيص إلى غير ذلك من فن الحديث. ثم بعد ذلك يقرأ حزبين من القرآن الكريم بترتيل، فإذا تم الحزبان استقبل القبلة واشتغل بالتسبيح والتحميد والتهليل حتى تغرب الشمس فيصلي المغرب وست ركعات بعدها، ثم يستقبل القبلة ويشتغل بالتسبيح والتحميد والتهليل حتى يغيب الشفق فيصلي العشاء، ثم تخرج الجماعة. ولا يأتيه أحد من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر إلا وجده مستيقظاً، فالله أعلم بالشغل الذي كان فيه¹¹.

إن صاحب هذه الجدولة قد سمع بحق ووعى بجدارة قول المصطفى الأمين صلى الله عليه وسلم: « من جعل الهموم هما واحدا هم آخرته كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك»¹². فلم يكن، كما نرى، مغبوناً في صحة ولا في فراغ، بل ظل منصرفاً طول حياته للتعلم والتعليم والتأليف والعبادة، ولم تفتته الدنيا بمتاعها ولم تستمله إغراءاتها، فكفاه الله بمنه وإحسانه كل همومها. يقول حفيده محمد عبد الله ولد محمد المختار إن أحد العارفين به وهو العالم الفقيه محمد المختار بن انبال حدثه عن ما تفضل عليه الله به في هذا الباب فقال: "من أعجب أمره أني أراه في أبلغ شيء من نعم الله هو وعياله ومع هذا لم

¹¹المصدر السابق

¹²نص الحديث كاملاً من سنن ابن ماجه: حدثنا علي بن محمد والحسين بن عبد الرحمن قالوا حدثنا عبد الله بن نمير عن معاوية النصري عن نهشل عن الضحاك عن الأسود بن يزيد عن عبد الله بن مسعود قال لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم فهانوا عليهم سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول من جعل الهموم هما واحدا هم آخرته كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك.

تكن له إبل ولا بقر ولا غنم ولا تجارة، ولا يرى شيئاً إلا جعله في النفقة واللباس للعيال حتى يدخر قوت سنة»¹³.

ومن كانت هذه حاله وذاك ديدنه، فقمنا أن ينال بين أهل الفضل مكانة سامقة، ويتبوأ بينهم مقاماً سامياً، ويثير إعجاب معاصريه، ويتأثر به كل من قرأ له أو كتب عنه أو ظفر بصحبته أو محاورته.

يقول صاحب كتاب "شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" عنه إنه "خاتمة المحققين وعمدة العلماء العاملين حتى كان وحيد عصره"¹⁴.

ويقدمه خير الدين الزركلي، على أنه "عالم بالحديث من فقهاء المالكية، شنقيطي الأصل، كان قاضي القضاة بجهة الحوض"¹⁵.

أما العلامة محمد حبيب الله ولد ماياي، فيصفه قائلاً "هو البحر الزاخر ذو المآثر الجميلة والمفاخر، إمام العلم وحامل لوائه. وحافظ علم الأصول وكوكب سمائه، محمد يحيى بن محمد المختار بن الطالب عبد الله الحوضي ثم الولاتي له من التأليف ما لا يحصى كثرة"، ويضيف: "كان إماماً من أهل الجد لا تأخذه في الله لومة لائم كثير الردع لأهل البدع والمناكر"¹⁶.

ويعضد هذه الشهادات ما يحدثنا به تلميذه الرواني عن سلوكه في القضاء، حيث يقول إنه كان "عدلاً ذا هيبة لا يدخل عليه جبار إلا تواضع ولا يخرج من عنده

¹³ صفحات مخطوطة بحوزتنا، عنوانها إنباء الأبناء بالجد عما كان للوالد والجد
¹⁴ محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت، لبنان د.ت، ص 435.

¹⁵ خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1979، مجلد 7، ص 142.

¹⁶ مقتطف من تقديم محمد حبيب الله ولد ماياي لكتابي محمد يحيى: فتح الودود على مراقبي السعود، ونيل السؤل على مرتقى الأصول.

خصمان إلا خرجا راضيين"17. ويقول عن التزامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنه كان "مجاهدا لمن خالف سنة الرسول ولجميع طوائف أهل البدع، مسلما لمن اتبع سنة الرسول وعمل بالشرع العزيز"، وأنه "كان رضي الله عنه وقافا عند كتاب الله لا تأخذه في الله لومة لائم أقرب الناس إليه وأبعدهم في الحق سواء"18. هذا، وإذا نحن أمعنا النظر في مواقف الرجل المختلفة ومنهجه الفكري وجدناه يمتاز باستقلالية فريدة في النظر، ونفس طويل في المحاوره والنقاش، وإعراض بين عن التقليد، ونزوع جلي إلى علم الأصول. وتلك، ولا ريب، مؤهلات يعكسها أسلوبه في التعاطي مع محيطه الثقافي والسياسي والاجتماعي، ومساره في الإفتاء والتأليف، كما سنرى في الآتي من هذا التقديم.

بعض مواقف الرجل

لمعرفة الدوافع الثابته خلف المواقف التي اتخذها محمد يحيى من قضايا عصره ومما درج عليه قومه من عادات وتواضعوا عليه من معاملات واحتكموا إليه من مرجعيات، لا بد من التساؤل عن مدى استيعابه لحالة المجتمع الولاى وما كان يعتور سلوكه عهدئذ من اعتقادات وممارسات اجتماعية وسياسية منبته الصلة بالشرع الحنيف. ونستعين لبلوغ هذا المرام بما ذكره هو نفسه من إشارات في ثنايا مصنفاته المختلفة مما يتعلق بهذا المنحى، وبيعض من حواراته ومواجهاته مع قومه. ومن بين تلك الإشارات ما أورده في حيثيات فتواه المتضمنة القول ببطلان جمعة ولاتة، حيث عد من بين شروطها المفقودة آنذاك شرط الجماعة التي يكون لها من التنظيم والاستقلالية والقدرات الذاتية ما يؤهلها لأن تقيم للإسلام أهته، وتنهض بالمهام الدينية الأساسية، وتؤسس المرافق العمومية وتسيرها. يقول في ذلك:

17 المرواني، مصدر سابق

18 المصدر السابق

" فإن قرية ولاتة مفقود منها شرط آخر متفق عليه بين المالكية وهو الجماعة القادرة على الدفع عن أنفسهم وأموالهم وعلى نصب الأسواق وإقامة أئمة الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مستغنين في ذلك كله عن غيرهم آمينين من لصوص الأعراب، وفقد هذا الشرط من جماعة ولاتة كئنا على علم في الشهرة عند الحاضر والبادي بالعيان والسماع والتواتر"19 .

ويضيف في ذات السياق واصفا افتقار قومه إلى مقومات الأمن والدفاع، أن أهل ولاتة "غير قادرين على الدفع عن أنفسهم وأموالهم... فهم من قديم الزمان لا بد لهم من بدوي ذي قوة يلجؤون إليه ويحتمون بحماه وهم الآن جعلهم الله في حماية أحمد محمود بن لحيميد، ولذلك يكونون في أقصى الخوف إذا رحل عنهم وخلق بينهم وبين أهل "تكانت" تكسر ديارهم ويؤخذ ما فيها وهم ينظرون ويجردون من ثيابهم وتسي أرقاؤهم ولا يدفعون عن هذا بمال ولا جاه ولا قوة. وإذا حاولوا الدفع بقوتهم فروا جميعا وقتلوا، ثم أعطوا أكثر مما كان مطلوبا منهم".

ويستشهد لتعزيز أحكامه القاسية هذه بقولة لأحد شعراء المدينة هو محمد عبد الله بن امبوي (توفي في العقد الأخير من ق 13هـ) يمدح فيها بعض رؤساء الأغلال ويستعطفهم ليحموا أهل ولاتة من الظلم الواقع عليهم:

ألم تعلموا أنا ضعاف وضعفنا قديم، وفي ضعف كضعف الضفادع

ضفادع جف الماء عنها وراعها من الصيف إقبال وذا شر رائع

هكذا شخص الولاتي أوضاع قومه، وأبرز فشو الخوف في ديارهم حتى غدوا عاجزين عن إقامة ضروريات أمور دنياهم وأساسيات التزاماتهم الشرعية. وفي

أحكامه، ولا شك، مبالغة، يظهر أن الداعي إليها هو استنهاض الهمم للثورة على هذا الواقع المزري الذي لا يتسنى معه تدبير معاش ولا العمل لمعاد²⁰. ويرتقى الشيخ في تتبع أسباب الخلل على مستوى الفئة العاملة من قومه، لعله يجد في سلوكها ما يفسر به الوهن العام الذي يصيب المجتمع الولاتي بعامة. فنجد في المبتدأ يرى أن النزعة الفروعية قد استحكمت في عقول هذه الفئة فكرست الجهل بمقاصد الشرع الحقيقية وأسلمت أمور الدين للعامة. مما يعني أن الفئة العاملة المعول عليها في تغيير الأوضاع هي ذاتها التي يجب أن يبدأ بها التغيير لأنها فاقدة لأدواته عاجزة بسبب ذلك عن استحقاق التميز عن الفئة العامة، ف"المقتصر على نقل الفروع عامي لا

²⁰ يبدو أن ما شهدته الولاتي من تدهور عام في أوضاع مدينة ولاتة لم يكن إلا لحظة من لحظات انحدار متواصل، فسند توثيقا لهذه الحال لدى نجله الأكبر محمد المختار (توفي سنة 1936 م) الذى اكتملت في أيامه فصول هذا الانحدار، فوجد التنفيس عن ألامه حينئذ في رثاء بديع لمسجد المدينة الذي تهدم سنوات قليلة بعد وفاة والده. يقول محمد المختار على لسان المسجد المتهمم (ربما يكون ذلك هو التهدم الذي قال عنه بول مارتي، كنته الشريقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، ص 17 إنه وقع سنة 1914):

عجبت لمسجد المولى لماذا	جميعا منه هدمت الجهات
وكان أبا المساجد والصحارى	مساجدها له طرا بنات
بمرصوص البناء بناه بان	له جدر عظام راسيات
وأحجار وطين مثل جير	كذا خشب عراض راسخات
تهدم كله لم يبق منه	ولو صف تقام به الصلاة
ويرد المسجد :	
(ألف) ²⁰ الآن مات جميع أهلي	وإذ ماتوا يحق لي الممات
وقد عمرت في الدنيا طويلا	تداولني القرون الصالحات
ولا لوم علي إذا تناهى	زمانى وانقضت منى الحياة
فما حي على الدنيا بباق	وليس لحادث فيها ثبات
تنسرت البغات فكان خيرا	لحر من سلامته الوفاة

حظ له من العلم والفقه، وإنما هو ناقل لفقه غيره، فإذا رد ما معه من الفروع إلى مستنبطها من الأصول لم يبق معه شيء من العلم"21 .

وهذا هو شأن علماء عصره الذين أعرضوا عن علم الأصول وجمدوا على الفروع. قَالَ الأمر إلى أن: " تنوسي هذا العلم وأعرض عنه الناس الإعراض التام في بلادنا هذه حتى صار قفرا موحشا لا هادي فيه ولا مهتدي، وتوغل الناس في الجهل حتى أن المنتسبين للعلم في بلادنا هذه ليظنون أن الفروع المدونة في الكتب كلها أحكام الله التي نزلت من عنده في الكتاب والسنة ولا يميزون بين المنصوص منها والمستنبط، وإنما يعتقدون أنها كلها مستوية في القوة نزلت من عند الله هكذا، وأنها كلها يقينية"22. ووصل الأمر ببعض العلماء أن شككوا في الحاجة إلى علم الأصول: " وقد بلغني عن بعضهم أنه يطعن في علم أصول الفقه ويقول إنه مستغنى عنه وأن المشتغل به ساع فيما لا طائل تحته.."23.

ويسترسل في مكان آخر في التأصيل لنزعه الأصولية بقوله: " أولا يدرى الجاهل أن الوقائع الفعلية كالمخلوقات الحسية يتجدد في كل زمن منها ما لم يقع في الوجود قط... فلولا أصول الشريعة لم يعلم للنوازل المتجددة حكم.. ففروع الشريعة تزداد في كل حين على حسب تجدد الوقائع الفعلية وتنقص أيضا بحسب سقوط ما بنيت عليه من الأصول لأن من الأصول ما يختص بزمان دون زمان وبلد دون بلد كالمصالح المرسلة والعوائد ونحو ذلك.."24

²¹ محمد يحيى الولاتى، مقدمة كتاب نيل السؤل على مرتقى الوصول (شرح منظومة مرتقى الوصول لابن عاصم) ، تصحيح وتدقيق ومراجعة بابا ولد محمد عبد الله، مطابع دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1992، ص 8.

²² المصدر السابق، نفس الصفحة

²³ المصدر السابق، نفس الصفحة

²⁴ المصدر السابق، نفس الصفحة

لقد ترسخت لديه القناعة بأن جمود علماء عصره على الفروع، يلقي بظلاله على واقع الأحكام الشرعية الصادرة عنهم، إفتاء في النوازل وممارسة للشعائر. ومن باب اعتراضه على سلوك علماء عصره في هذا المجال، نراه يعتزل الصلاة في مسجد المدينة احتجاجا منه على توارث إمامة الصلاة فيه، وهي حسب رأيه بدعة جاهلية غير مقبولة شرعا. وفي ذلك يقول: " وقد عكس أهل هذا الزمن السنة المحمدية فجعلوا الأحق بالإمامة ابن الإمام أو أخاه، وجعلوا ذلك عادة محكمة نسخوا بها الشرع العزيز، وهذه عادة مبتدعة من سنن الجاهلية، نسأل الله السلامة وأن يمتتنا على السنة المحمدية"²⁵.

ون يتوقف عند هذا الحد بل سيبدأ في تتبع فتاوي قومه ويعرضها على الدين وأصوله ليثبت في أحوال كثيرة تماتها. وكانت البداية مع تعقب فتاوي قاضي المدينة الرسمي، العالم أحمدو ولد عبد المالك ومؤيديه من أكابر علماء المدينة النافذين، خاصة منهم العالم الكبير الطالب بيكر الذي كان في الحقيقة جامعا بين السلطتين السياسية والدينية.

وقد رأى هؤلاء في سلوك محمد يحيى تحديا غير لائق، وإفسادا بين الناس لا يمكن السكوت عليه، فشكوه إلى أمير أهل لحيميد الذي استفسره عن الموضوع فنفى التهم الموجهة إليه، وضمن هذا النفي الآيات التالية التي لا تخفى فيها نزعته الأصولية:

لئن كان إفسادا بيان مسائل من الشرع جاءت نورها يتوقد
صحيحة أصل من كتاب وسنة ونص فقيه رائق يتعود
فإن كان ذا إفساد بين وفرقة فإني وأيم الله حقا لمفسد

²⁵ انظر هذا الكتاب العروة الوثقى، ص 351 عند الحديث عن تولية الإمام بالوراثة.

ويشند التوتر بين الولاتى وعلماء عصره، فنجده يعكس هذه الحال في مقطوعة شديدة اللهجة، حادة الأسلوب تترجم ثقة كبيرة في النفس، وتحديا كبيرا للخصوم، وإيمانا قويا برسالة صاحبها الإصلاحية، وعزما صارما على الذهاب بها إلى أبعد الحدود:

قل للمعارض بالسفاهة والخنى قد خاب من تخذ السفاهة مغنما

إلى أن يقول:

هذي المحامد لا شقائق نافث متشدد متفهبق يبغى العمي
هذي علوم الشرع عند منافع عنها بسيف الحق من دخل الحمى
علق نفيس لا يباع بعجسد كلا ولا ورق ولا ملك ابن ما
من شاء فليصدق ومن يك كاذبا فليبع مرقى للسماء وسلما
حتم علينا أن نزيق قوله بمحرر الشرع المزيل صدى الظما
لا نخشني في الله لومة لائم رغما على أنف الوضع ومن سما

ثم ينتقل إلى رأس الهرم الذي تمثله الفئة المسككة بزمام السلطة السياسية في المجتمع - الفئة الثالثة بعد الفئتين: العامة والعلماء- ليحدد نصيبها من المسؤولية عن التردى الذي تشهده الأوضاع في مدينة ولاته في ذلك الحين من الدهر. ويجتهد في هذا المقام في إجلاء آيات تقصير هذه الفئة وعلامات انحلالها، وما يستتبع ذلك من نتائج غير محمودة تنسحب آثارها على الدين والمجتمع.

وهكذا نلقاه يعقد الفصل الأخير من كتابه "رسالة النصح والوفاء عن الحيف في فض المداراة على أموال الضعفاء" ل "بيان الشروط المشترطة عند أهل التحرير والنقد في الجماعة التي يمضى على العامة كل ما فعلت من الحل والعقد". ويحمل هذه الشروط في "العلم والعدالة والرأي"، مستندا إلى أقوال جلة العلماء المحققين. ليخلص إلى أن " هذه الشروط الثلاثة مفقودة في جماعات بلادنا هذه".

ومرد ذلك حسب رأيه إلى أن " السفهاء الجهال والفسقة هم رؤسأؤها وأهل حلها وعقدتها، وأهل العلم والورع مساكين ضعفاء فيها لا يتفقدون إذا غابوا ولا يشاورون إذا حضروا ليس لهم في الحل والعقد كلام ولا لهم عند الناس مقام تدريهم السفهاء وتتضحك منهم الأغبياء ليس لهم في أمر العامة مقال ولا يوجه إليهم من شأنه سؤال".

ويتمادى في فضح ما يراه من استخفاف أهل الحل والعقد بأمور الدين: " فلقد بلغني أن الرؤساء إذا قيل لهم في شيء من أمورهم إنه غير موافق للشرع أنهم يقولون لقاتل ذلك دعنا من أحكامك وإن الشرع يفسد سياستنا ويخل بذات بيننا"، ويعلل هذا الموقف منهم بقوله: " وما ذلك إلا لأنهم مصطلحون فيما بينهم على المداهنة المحرمة ويقولون في أمثالهم "من لم ينافق لم يوافق" اتخذوا المداهنة ديدنا والعدول عن الحق دينا نسأل الله السلامة".

وينتهي به الأمر إلى أن يحكم صراحة بأن العامة في حل من طاعتهم بالنظر إلى عدم توفر الشروط المطلوبة شرعا فيهم، فيقول:

" إن أفعال الرؤساء في بلادنا هذه كلها مردودة شرعا لا يمضي منها شيء على العامة لأنهم لا يتقيدون بالشرع العزيز في حلهم وعقدتهم لجورهم، ولا يميزون بين الحق والباطل لجهلهم، ولا ينظرون في عواقب الأمور لعمى بصائرهم وفساد رأيهم لتغطية رين القلوب على قلوبهم، بل يتبعون أهواءهم وآراءهم الفاسدة فقط .."

ونحسب أن هذه اللحظة من تفكير الولاتى مؤسسة لغيرها من باقي اللحظات في نسقه الفكري، ودالة على ما عرف به من مقاومة عنيفة لكل ما يرى أنه انحراف عقدي أو سلوكي عن المحجة البيضاء التي كان يسير على هديها مطمئنا ثابتا، ليلها عنده كنهارها أبيض ناصع. فقد أسلم وجهه لله مستمسكا بالعروة الوثقى، لا يخشى في سبيلها لومة لائم، ولا تستهويه السبل المعوجة الملتوية مهما كانت محروسة بسلطان رادع جبار تسنده قيم دينوية بالية باثرة .

وفي لحظة لاحقة، نجد الولاى يؤسس لتحالف بينه وبين سلطة أهل محميد²⁶ التي استتب لها الأمر في عصره، واشتهرت بكثير من العدل وتنزيل أهل الحق المنازل التي هي لهم، حيث قبل أن يتولى منصب القضاء بعد أن قبلت هذه السلطة تلبية اشتراطه الوحيد وهو الانصياع لكل الأحكام التي يصدرها.

ومن دلائل مكانته لدى سلطة أهل محميد والتزامه النصح لهم، رسالة عثرنا عليها بخطه، يوجهها إلى محمد المختار ولد محمد محمود، يقول فيها:

" بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله، سلام لا يباهى ولا يبارى وتحية لا تضاهى ولا تجارى من عبد ربه محمد يحيى بن محمد المختار إلى ابني منزلة ومحبة ومودة، ذاك محمد المختار بن محمد محمود حفظه الله الحفيظ الودود ونصره وأعانه على كل عدو له وكل حسود، ولا زال في عز وظل ممدود، ولا زال عدوه مجذولا وحاسده خاسئا مطرودا . اعلم حفظك الله تعالى ورعاك وأعانك على عدوك وقواك، أنا نقرئك ألف ألف سلام، ونحييك ألف ألف تحية، يصحبها توقيير واحترام ونوصيك وإيانا بتقوى الله العظيم في السر والعلانية والذب عن حريم المسلمين وأمواهم ودفع المظالم عنهم فإنك راع عليهم أي جعلك الله تعالى راعيا عليهم والراعي مسؤول عن رعيته ولا سيما من تعلق بك وتشبث بأذيالك من المسلمين كأولاد بل فإنهم قد مسهم الظلم بسبب انتمائهم إليك. وأوصيك أيضا بأن لاتحرك حربا بينك وبين أحد من المسلمين كأولاد الناصر ولحمنات لأن طول الهدنة يزيد ملكك توكيدا وقوة ومهابة. وإثارة الحرب توجب ضد ذلك لأهما إذا اشتعلت.. أظهر الضغن والعداوة كل من في قلبه دخل أي بغض وعداوة. فإياك وإياك وتحريك الحرب إلا إذا لم يكن

²⁶أهل لمحميد بيت الرئاسة في مشظوف وكان جدهم المحميد بن المختار وابنه المختار قد حاولا جمع كلمة مشظوف وتخليصها من التبعية لإيدوعيش في النصف الأول من القرن 19، وقد تمكن محمد محمود بن المختار بن المحميد من التخلص من هيمنة إيدوعيش والدخول في صراعات مع أولاد أمبارك عند ما انتقل مجال مشظوف الجغرافي من تكانت إلى الحوض وبزوال سلطة أولاد أمبارك من الحوض سيطر عليه مشظوف سياسيا وعسكريا ولا سيما في الفترة ما بين 1852-1884 قبل أن يصيبهم ما أصاب خصومهم السابقين من انقسامات وصراعات سياسية : عن السعد

منها بد، فإنك إن أكرهت عليها أعانك الله تعالى على أعدائك وخذلهم. وإذا بلغك هذا الكتاب فممكن حامله من الأمة التي ذكرت لي إذا تيسرت لك، واعلم أنى معنى من القدوم إليكم عدم الظهر لأن جملي الذي تعرف مات في الصيف والثاني ضل من آخر الصيف والله الحمد والمنة. والسلام يعود عليكم ورحمة الله وبركاته مادام الفلك وحركاته حفظك الله ورعاك وحمد مسعانا ومسعاك."

- رحلاته الخارجية:

- رحلته "السودانية"

تعرضت مدينة ولاتة في العقد الأول من القرن الرابع عشر الهجرى لجفاف عات ضاعف من قسوته على السكان تزامنه مع خلاف سياسي بين قبيلة " كنتة" وإمارة "فوته"27، منعت على إثره هذه الأخيرة الميرة عن أهل ولاتة انتقاما منهم لموالاهم للكنتيين. .

وتشاء الأقدار أن يكون محمد يحيى عضوا في وفد يرسله أهل ولاتة للتفاوض باسمهم مع أمير فوته أحمد بن الحاج عمار تال28، وتدور بين الرجلين المحاوره التالية. الفوتي، واصفا وفد الولايتين: "أعداؤنا وأنصار أعدائنا". محمد يحيى: "سلطانك أعز أم سلطان الله؟" الفوتي: "سلطان الله أعز". محمد يحيى: يقول الله تعالى: "ولاتزر وازرة وزر أخرى، فما ذا تقول لربك غدا في منعك الميرة عنا ونحن على ما تعلم"...

²⁷ إمارة مسلمة أسستها قبيلة فلان السودانية في الجزء الغربي من دولة مالي الحالية في أواخر القرن 18م وكانت المصدر الأساسي لتموين الولايتين من الحبوب.

²⁸ تولى إمارة فوته سنة 1865م

هنالك تقول الرواية التي أدرناها متداولة عند القوم، إن الأمر انتهى بالأمير، تحت تأثير شجاعة محمد يحيى وقوة منطقته، إلى التراجع عن الحظر الذي كان قد فرضه على الولاقيين. وحينها أنشأ الولاقي في مدحه قصيدة مطلعها:

أيا أحمد الأندى ويا فارح الأزل ويا هازم الأعدا ويا طيب الأصل

وتحت تأثير إعجاب الأمير بمحمد يحيى، طلب منه البقاء معه زمنا ينتفع هو وقومه بعلمه، فمكث بينهم فترة يؤمهم في الصلاة وينشر فيهم ما آتاه الله من علم ومعرفة، ولما هم بالمغادرة قافلا إلى وطنه أهده الأمير سلسلة ذهبية وزن مائة مثقال، وبعض الملابس والبضائع. ويجتهد الساس بن اب²⁹ في ترجيح أن هذه الهدايا كانت المصدر الأول لتمويل رحلة محمد يحيى إلى الحجاز لاحقا.

4- الرحلة الحجازية:

في سنة 1311 هـ خرج محمد يحيى في رحلة إلى الحجاز بيتغي منها أداء مناسك الحج وزيارة قبر الرسول الكريم عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى السلام. وتعد هذه الرحلة من أهم أحداث حياته رحمه الله تعالى وأدخله في الصالحين من عباده العاملين الصالحات.

وفي هذه المناسبة أنشد العالم الكبير محمد المختار بن انبال، مستشعرا الفراغ العلمي الذي سببه غياب محمد يحيى عن ولاته:

لئن غاب عن "والات" يحيى
فإنها تغيب عنها نورها وشبابها
وغيب عنها فقهها وصوابها
وغيب عنها نحوها وبيانها

وقد استغرقت هذه الرحلة ست سنوات وثلاثة أشهر (من 7 رجب 1311 / 14 يناير 1984 إلى 6 شوال 1317 / 7 يناير 1900)، وقد كان مسارها في الذهاب كالآتي:

²⁹ الساس بن اب، مصدر سابق، ص

ولادة - غريجت - تيشيت - أغريجت ثانية - شنقيط شهرين - اكليميم - تازروالت، الصويرة - الرباط - طنجة - الجزائر - تونس - بورسعيد - السويس - فجدة. وهذا المسلك في شقه الصحراوي خاصة، هو الطريق الأوسط من المحور الغربي المعروف بالطريق للمتوني المألوف منذ الفترة الوسيطة والذي كان مهيمنا على المبادلات عبر الصحراء في القرنين 11 و 12 بفعل عوامل من أهمها تفاعلات الثورة المرابطية، قبل أن يتراجع لصالح المحور الأوسط الرابط بين النيجر وتلمسان عبر توات فيما بين ق 13 و 16م، ليعود إلى الانتعاش مع بداية القرن 17 ويظل صلة الوصل الأساسية عبر الصحراء بالنسبة لبلاد شنقيط حتى بداية القرن العشرين³⁰. ويقدم كتاب (الرحلة الحجازية) الذي دون فيه الولاى أحداث رحلته إلى الحج، شاهدا حيا على هذا الانتعاش المتجدد لهذا المسلك.

وقد كان هذا الخروج فرصة يحتك خلالها الرجل بأهل العلم والفضل والشأن في مختلف محطات الذهاب إلى الديار المقدسة والعودة منها، فتدور بينه وبينهم محاورات ومناظرات جليلة شيقة زاخرة بالأخذ والعطاء حفظ لنا لحظاتها الكبرى بأسلوبه السلس الرصين في مصنفه الموسوم ب"الرحلة الحجازية"³¹.

وقد طغى البعد العلمي في هذه المدونة على ما سواه من الأبعاد التي تطفح بها عادة كتب الرحلات، إذ لم يحتل الكلام عن أحداث الرحلة (وسائل التنقل من محطة إلى أخرى ومدة الإقامة في كل واحدة منها، ووصف المجموعات السكانية التي يمر بها وعاداتها في الضيافة والاحتراف بأهل العلم..) إلا زهاء خمس النص، بينما شغلت الفتاوى ومؤلفات الكاتب المختلفة وشروحها كل المساحة المتبقية .

³⁰ محمد المختار ولد السعد، مسالك القوافل ودورها في التواصل الثقافي بين طرفي الصحراء خلال القرن 19، قراء في رحلة الولاى، مقال منشور في حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد 3، سنة 1992..ص 91

³¹ طبعت بتخريج وتعليق محمد حجي بالاشتراك بين معهد الدراسات الإفريقية بالرباط ودار العرب الإسلامي، سنة 1990.

وعلى أية حال تعد رحلة الولاى مثالا ناصعا لذلك النمط الفذ من التواصل العربى الإسلامى فى مجال العلم والثقافة، فى زمن كانت فيه المسافات بين مراكز الإشعاع الحضارى (شنقيط، فاس، تونس، مصر والحجاز...) شاسعة حقا، ووسائل الاتصال السريع بينها منعدمة تماما. لكن الحكمة الإلهية تشاء أن يبارك الله فى ذلك العصر - صدر القرن الرابع عشر الهجرى - وأهله، فيوظفون زمنهم المعلق بين محطتين فى ما هو أهم وأبقى...

فها هو ذا محمد يحيى يتوقف فى الرباط ليلتقى بسلطاتها آنذاك عبد العزيز 1894 - 1908 الذي يرتب له مرتبا شهريا ويعطيه من المال ما يكفى لإيصاله إلى بيت الله الحرام، ويمتد التوقف الرباطى حوالى خمسة أشهر يتزوج خلالها لال خديجة بنت مولانا إدريس بن برقوق الشريف الإدريسي، ويأخذ عليه فى هذا المقام الفقيهان سيدي عبد الله التادلوي وسيدي محمد اب الأمين علم البيان من كتاب تلخيص القزويني وبعض علم الأصول من جمع الجوامع، وتأليفه "منبع الحق والتقى" وشرحه العروة الوثقى الذي نقدم له الآن 32. وتقع بينه وبين هذين الرجلين مشاعرة يذيل فيها بيتين لهما فى مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فى قصيدتين مثبتتين فى متن الرحلة.

... ويقطع المسافات الأخرى فى الذهاب دون توقف يذكر، إلى أن يصل المدينة المنورة، فيجلس وسط حلقة التدريس فيها يلقي على الطلبة موطأ إمامها مالك - رضى الله عنه - وعقود الجمان للسيوطي، وورقات إمام الحرمين، ويجب فيها عن أسئلة كثيرة من بينها: سؤال عن جواز الحكم بالضعيف من مذهب الإمام مالك للقاضي المالكي المقلد، وعن جواز حكمه أيضا بقول غير إمامه: كالحنفية مثلا، وعمّا إذا كان يجب نقض حكمه إذا حكم بذلك، وعن المراد بالضعيف الذي ينقض حكم الحاكم المالكي المقلد....

³² انظر الرحلة الحجازية، تخريج محمد حجي، ص 158، حيث يذكر محمد يحيى أن الفقيهين المذكورين نسخا نسخة من منبع الحق والتقى وشرحه الذي نخرج الآن جزأه الأول، وتبحث عن جزئه الثانى فى المنظنة المذكورة هنا.

ويؤدى الولاى مناسك الحج، ملتزما وصف كل مراحل هذا الأداء بأسلوب علمى دقيق واضح. ويرى الدكتور محمد حجي، محقا، إمكانية طباعه هذا المقطع من الرحلة " على حدة كدليل للحج السنى "33 .

وتبدأ رحلة العودة إلى الوطن بتوقف فى الإسكندرية، ينزل خلاله صاحبنا عند فقيه من فقهاها الكبار "أحمد حمزة بن الشيخ الحسن حمزة". ويدخل هذا الأخير أعظم مسجد فى المدينة ليجد فيه المدرسين على كراسيهم، فيقول: "يا علماء الإسكندرية، هذه نصيحة: نزل بيتى أحد علماء شنقيط ولم يأت أحد منكم فكرهت أن يذهب إلى بلاده ويقول دخلت اسكندرية وما لقيت فيها عالما، قوموا إليه لتستفيدوا منه ويستفيد منكم، فأتاني بهم جميعا ومعهم إمامهم فى العلم الشيخ الفاضل عبد الرحمن الأبيارى فتفاوضوا معي كلهم فى مسائل العلم" 34

ويشم هذا التوقف إجازة فى مذهب الإمام الشافعى يوقعها الشيخ عبد الرحمن الأبيارى لصالح محمد يحيى الولاى (صورة منها ملحقة بهذا التقديم)، وإجابات عن أسئلة أوردها عليه بعض أهل الاسكندرية عن وحدة الوجود وعن ما يذكره علماء التصوف من علم الباطن والحقيقة.

.. ويغادر الولاى مصر متوجها إلى تونس التى يمكث بها شهرين وعشرين ليلة مكرما من أعيانها وعلمائها. ويذكر فى رحلته ما يربو على الثلاثين عالما أو شريفا التقى بهم فى تونس وأضافوه وأهدوا إليه نفائس الكتب. وهنا رد على جملة من الأسئلة تتعلق بالحكم الشرعى فى "ضرب السلك المسمى بالتلغراف هل يثبت به الهلال أم لا"، وبالحكم الشرعى فى "قيام جماعة الذكر فى تلاوة الورد عند لفظ معين من أذكار الورد"، وبحكم "القيام للتسليم على الشخص الداخلى عليك"...

³³ المصدر السابق، ص، 11

³⁴ المصدر السابق، ص، 214

.. ومن تونس يتوجه إلى الرباط حيث يلقى من الترحيب والإكرام من السلطان مولاي عبد العزيز وأهل بلاطه مثل ما لقيه حين مر مشرقاً³⁵. ويجب في الرباط عن أسئلة كثيرة من بينها سؤال عن مراتب الأولياء "هل لها أصل من السنة أم لا؟" وعن "الذبح على قبور الصالحين" وعن "الاستغاثة بالأولياء" وعن "إكباب أولياء هذا العصر على حطام الدنيا وجمعه من العوام"، وعن "ما يحصل لهم من الغشي والصعق والصراخ".

وخلال وجوده نفس المقام، يمكث فترة بمراكش يدرس خلالها كتاب الشمائل للتمرذني، وبعض كتاب الشفاء للقاضي عياض لعم السلطان عبد الرحمن ولفقيه محمود بن سيدي صالح ولجماعة من أصحاب الشيخ أحمد بن محمد التيجاني. وينتقل إلى مدينة تندوف - بالجزائر حالياً - فيجيب خلال توقفه بها عن أسئلة منها سؤال حول "علم الكلام تعريفه وموضوعه وواضعيه"، وسؤال آخر حول "حد علوم الفلسفة وموضوعها وواضعها وحكمها في الشرع العزيز"...

تلك لحظات مجتزأة من رحلة الولاى الحجازية تدل أولاً على علو كعب صاحبها في شتى علوم الدين واللغة، وتعطي ثانياً الدليل - لمن يحتاجه - على أن الأمة كانت إلى عهد قريب بخير، مشاعرهما واحدة ومشاكلها واحدة، وجسمها - على الرغم من بعد أعضائه عن بعضها - متآلف متحد من المغرب إلى المشرق، يتداعى بعضه لما يعرض لبعضه الآخر بالسهر والحمى، وأن مكانة العلماء فيها ظلت مصانة محفوظة من أهل الجاه والفضل والسلطان.

ويستخلص من هذه الرحلة وما دار فيها من أحداث، فضلاً عن كل ذلك أن هموم الأمة في المجال العلمي كانت أيام الولاى تعكس إرهاصات نهضة عقلانية تسائل الذات عن مضامينها المكتسبة وتعرضها على النقل والعقل لتمييز الصالح منها من الطالح. وفي هذا السجل تنتزل الأسئلة المطروحة في التصوف وما يرتبط به من قضايا كوحدة

الوجود وسلوك بعض المتصوفة في حالات الصعق والغشي وإكباب بعضهم على حطام الدنيا، وتلك المطروحة في موضوعات التقليد والتمازج وضوابطهما وحدودهما الشرعية.

ولناظر في الرحلة الحجازية أن يأخذ على صاحبها عدم اكتراثه بوصف العمران والتحدث عن أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وله ذلك. ولنا أن " لا نستبعد مثل هذا الموقف من رجل لم يألّف الرحلة والأسفار فعاش جل حياته جليس الكتاب حبيس الدرس والمطالعة، سعيه ينحصر في التأليف والقضاء والفتوى، فمن المنطقي إذا أن يتجاهل الحركة الاقتصادية والنشاط الاجتماعي ما دام لا يدخلان في دائرة اهتمامه"³⁶. إن الغالب على طبيعة الرجل هو الانصراف ابتداء إلى المطالعة والتعليم والتأليف والإفتاء، والعزوف عما سوى ذلك من المشاغل.

ومع ذلك فإننا نزعم أن من الرحلة لحظات لم تكتب، عن قصد من صاحبها تارة ودون قصد بين منه تارة أخرى، وأن من بينما كتب منها جوانب تم المرور عليها بسرعة. لذلك نرى من المفيد مساءلة هذا النص في سياق ما يتيسر من تراث الرجل عامة، عن ما سكت عنه أو عن ما ابتسره. وحسبنا في هذا الجهد المتواضع أن نثير تساؤلات قد تمهد السبيل لغيرنا من ذوي الاختصاص لتعميق البحث واختبار الفرضيات المتاحة بهذا الشأن، وذلك في شكل الملاحظات التالية:

- من الثابت لدينا أن علاقة الولاى بأهله لم تنقطع خلال رحلته، بل إنه كان متطعاً إلى معرفة أخبار وطنه، مهتماً بوجه خاص بمعرفة مآل محاولات الفرنسيين الاستعمارية تجاه منطقتهم. ومن دلائل ذلك رسالة وجهها من آدرار إلى ابائى ولد محمد عبد الله³⁷ يطلب في بدايتها منه أن يبيع له مستودعات من القماش والعين³⁸ تركها عنده وعند

³⁶ محمد بن أحمد بن محبوب، مقال تحت عنوان: رحلة الولاى رمز التواصل والإشعاع (مقاربة لجوانب من الصلات العلمية بين بلاد شنقيط وبين بعض مراكز الثقافة الإسلامية خلال صدر القرن 14 هـ)، ص 13، غير منشور.

³⁷ يوجد نص الرسالة بخط يده بمكتبة المسمى ابائى ولد...

³⁸ الراجح أنها بقية الهدايا التي عاد بها من ا

.... ويرسل له ثمنها - ليستعين به فيما يبدو على تكاليف الحج- ويدعوه في نهايتها لأن يرسل له " بما طرأ في الأرض من خبر النصارى ومشطوف وغيرهم" 39 . وهنا يشرع لنا التساؤل عن السر في خلو الرحلة من الإشارة إلى هذه الرسالة التي لا نظن أنها كانت يتيمة، ونفترض أن العثور على الرد عليها، أو على ما لحق بها من مراسلات أخرى- إذا تيسر- كفيلا بأن يسعفنا بخيوط تنير بعض جوانب تاريخ المنطقة في تلك الفترة..

تعمد الولاتي - فيما يبدو- عدم تثبيت القصاصد التي قال إنه مدح بها السلطان عبد العزيز بن الحسن، وأنه أراها وزيره الأعظم أحمد بن موسى 40. ولم نعر حتى الآن على هذه القصاصد، لكننا نعتقد أن من شأنها - إن تم الظفر بها- أن تنور الباحث أكثر عن نظرة الرجل عن نوع العلاقة بين وطنه وبين سلطان المغرب آنذاك.

يتهيأ لنا أن المعلومات التي قدمها الكاتب عن المجموعات الساكنة للفضاء الصحراوي الذي دارت فيه وقائع رحلته، هي من الدقة بحيث يمكنها، إن درست من عارف بأوضاع المنطقة أن تمدنا بمفاتيح معينة على الإحاطة بالآليات المتحركة -غالبا- في سلوك هذه المجموعات وعلاقات بعضها ببعض في ذلك الفضاء.

تفيدنا فتوى الولاتي في تندوف حول " الحكم الشرعي فيما جرى به العمل في المشرق والمغرب من التفاضل بين السكك في بيع الفضة بعضها ببعض تبعا للقانون الرومي

³⁹ الربط بين النصارى ومشطوف هنا يتيسر فهمه أكثر إذا عرفنا أن الولاتي الذي يظهر أنه كان متابعاً لمحاولات الفرنسيين تجاه وطنه، ويعول على مشطوف للتصدي لهم. بل تقول الرواية أنه أخذ عهداً من أميرهم آنذاك اعل ولد لمحميد أن لا يدخلوا منطقتهم إلا إذا أحيط به من كل الجهات. وسيوضح ذلك من خلال ردة الفعل التي ستصدر عنه حين تنأى إليه بعد عودته نيا نجاح السيطرة الفرنسية، حيث قال (مر، مر اعلي)، وهي عبارة تويخ شديدة للأمير. وتداول بين القوم قصة أخرى تقول إنه في مرض موته أتاه أكيك الذي الت إليه السلطة في المدينة آنذاك بطبيب فرنسي ليفحصه، فبادره وهو على فراش المرض بالقول " أف . أف . هؤلاء دخلوا الأرض.. " وطلب من أهله أن لا يفتحوا الباب لأكبك والطبيب الذين تعهدا بالرجوع إليه في اليوم الموالي لعيادته.

الذي اصطلاح عليه أحناس النصارى وأجروه في المسلمين " 41 بشهادة مهمة حول " التغلغل البضاعي الأوربي في المناطق المذكورة... (و) الهيمنة النقدية الأوربية فيها كذلك" 42. ولعل مزيدا من الاستنطاق العلمي لهذه الفتوى أن يمد الباحث، إن هو نزل في سياق معلومات من مصادر أخرى عن ذلك العهد، بعناصر تعين على تبين مدى تعاطي القوم مع البذور الأولى لما سيؤول بعد أكثر من قرن إلى عولمة القاهرة. محاولة "المصالحة" على أديم الرحلة بين أقطاب التيارين الصوفي الإشراقي (ابن عربي، ابن الفارض، الحلاج..) 43 والتيار السلفي ممثلا على وجه الخصوص بابن تيمية،

41 فتوى يرد فيها على أسئلة وردت عليه في تبذوف، خلال رحلة عودته من الحج، من قبل أحمد يكن بن محمد المختار بن الأعمش الجكني. وقد حذفت هذه الفتوى من النص المطبوع بتخريج محمد حجي المحال إليه في هذا التقديم.

42 محمد المختار ولد السعد، مصدر سابق ص 95

43 يقول محمد يحيى جوابا على سؤال عما إذا كان لأهل التصوف في ألفاظهم الموهمة الاعتقاد بوحدة الوجود و الحلول أو التجسيم، أصل من السنة " لا أصل لهم في ذلك من السنة فلم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم لفظ يقضي وحدة الوجود أو يوهم الحلول أو التجسيم أو الاتحاد، بل ولا أصل لهم في ذلك من سلف الأمة من التابعين ولا من تابعيهم ولا من سلف المتصوفة كالفسيري والسهروردي. وإنما حدث القول بالوحدة من متأخري المتصوفة كالهروي وابن (ال) عربي وابن سبعين وابن الفارض وابن عفيف والنجم الإسرئيلي واضرابهم. وأصلهم في ذلك أنهم لما أماتوا نفوسهم بالمجاهدة في طاعة الله تعالى ومحاسبية النفس على الأعمال حتى صاروا في مقام الفناء والغيبة عن الخلق في شهود حضرة الحق وصفت بواطنهم من أدران النفس وغابت عن الحس وانكشف لهم بعض الحقائق رأوا أن ما سوى الله عدم في الحقيقة لأن أصله العدم ومآله العدم، ووجوده الحالي غابوا عنه واستغرقت بواطنهم في مشاهدة صفات الحق تعالى فحينئذ عرض لهم توهم هذه الوحدة، فنطقوا بتلك الألفاظ الموهمة بحسب الظاهر. وهذا المقام يسمى عند المتحققين منهم مقام الجمع ثم يترقون عنه في التمييز بين الموجودات ويعبرون عن ذلك المقام بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق. ولا بد للمريد عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لأنه يخشى على المريد من الوقوف عندها فتخسر صفتة باعتقاده الحلول أو الاتحاد أو التجسيم تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا وأعادنا من هذا الاعتقاد ونحوه والله أعلم" (الرحلة الحجازية، مصدر سابق، الصفحات 234 و 235). فنحن بحكم هذا الكلام أمام طريقتين من المتصوفة: سلف المتصوفة السنيين الملتزمين طريق السنة والسلف الصالح، ومتأخري المتصوفة ممن توهم ألفاظهم عكس ذلك، والكاتب كما نرى يستعير قاموس الفريق الأخير (المجاهدة، الفناء، الغيبة، الشهود، الحضرة والمقامات). ، ليصل بنا إلى حصر جوهر الخلاف بين العارفين المحققين منه وبين الفريق الأول في المنهج والطريقة فقط، منبها إلى أن من مريدي الفريق الثاني طائفة يتوقفون في منتصف الطريق فيخسرون الصفة ويناقش في هذا السياق نصوصا لابن خلدون وابن تيمية تنتهي بالنسبة للأول إلى الجزم بأن ابن عربي وابن سبعين وابن العفيف وابن الفارض- الذين يبدو أن صاحبنا يراهم من المحققين العارفين- "صرحوا باعتقاد الحلول"، وبالنسبة للثاني إلى أن " هؤلاء تكلموا في التصوف والحقيقة على قاعدة الفلاسفة لا على أصول المسلمين". وفي مقابل هذين

وما اقتضته لدى الكاتب من لجوء إلى لي النصوص وتأويل ألفاظها بحثا عن أحسن المخارج، تستحق دراسة تحفر في مراميها لدى هذا الرجل المعروف بانتماؤه الصوفي السني المعتدل، وبمجاهرته بالإنكار الشديد على غلاة المتصوفة من كل مذهب وطريقة. ولا شك أن موسوعيته التي مكنته من أن يمتاح ينابيع جهابذة المتصوفة وإنتاج كبار أعلام الفكر الإسلامي من أمثال الإمام الغزالي والعلامة ابن خلدون، وابن حجر الهيثمي وغيرهم، أسعفته في مسعاها الأصيل هذا. وكم نحن بحاجة إلى استتباب مثل هذه الجيرة السلمية على أساس علمي راق في سمائنا الفكرية المعاصرة الملبدة بغيوم صراعات دامية مهلكة من لم يكن طرفا فيها أصابه من غبارها.

تلك أفكار متفرج خارج عن الحلبة، وإن تصب فإنها لعمري رمية من غير رام، وصاحبها على أي حال يرضى من الغنيمة بأن تثير وخزاته هذه فضولا هنا أو تعليقا هناك.

مراثي الرجل

هذه أبيات من مرثية عصماء أرسلها الفقيه الفاضل الشيخ محمد السنوسي بن الفقيه إبراهيم القابسي قاضي قابس من القطر التونسي الشقيق إلى محمد المختار بن محمد

الموقفين بضع الكاتب موقفه على أساس تسليمه ب " أن أكثر أقوالهم الصريح في نفي ذلك (القول بالحلول) وفي التدين باعتقاد أهل السنة، فيحمل ما شذ من ألفاظهم بظاهرة عن مذهب أهل السنة على التأويل لبوافق أكثر ألفاظهم الصريحة في التدين باعتقاد أهل السنة والله أعلم" (الرحلة الحجازية، مصدر سابق، ص 237)، ويحمل ذلك في قوله: " فبان لك أيها الناظر أن هذين الفقيهين أفتيا بتضليل هؤلاء السادة ونسبهم إلى اعتقاد الفلاسفة والروافض والإسماعيلية الدائنين بالحلول والاتحاد والهيئة الأئمة، وأنا بريء من هذا كله، ومدهبي فيهم أنهم من أفراد هذه الأمة" (الرحلة الحجازية، مصدر سابق، ص 238)، ويستنجد لدعم موقفه بأقوال لابن حجر الهيثمي التي يقول إن كلامه فيه " من حسن الظن بالأولياء والنصيحة للمسلمين في شأنهم، وأنه يلتبس لهم أحسن المخارج مما يقتضيه ظاهر ألفاظهم، كفاية لمن نور الله بصيرته والهمة الاشتغال بعيوب نفسه عن عيوب غيره" (الرحلة الحجازية، مصدر سابق، ص 240).

يحيى، لما بلغه انتقال والده -الذي نحن بصدد التقديم له الآن- إلى رحمة الواحد الديان،
فيقول:

مضى خلف الأبرار والسيد الخبير
وغيب منه في الثرى نير الهدى
ومات الهدى فلترثه ألسن الثنا
بحق المعالي أن تشق جيوبها
هو العالم النحرير شمس زمانه
هو البحر عند الدرس تثنى علومه
هو السيد الكشاف كل عويصة
هو السعد بالتحقيق رد لعصرنا
حوى فكره كل العلوم فنقلها
ولا تحسبن الدهر أهلك شخصه
ولو دفنوه قومه تحت قدره
وما دفننه في الأرض إلا لعلمنا
وما غسله بالماء إلا تطوعا
حوى الفضل والإيثار والزهد والنهى
تعطلت الأفهام بعد وفاته
وذا العيلم المفضل حافظ عصره
لذاك دعي بين الورى بمحمد
فمن لعلوم الدين بعد عصامها
وغير ملوم جازع لمصابه
إمام كأن الله آخر موته
وكيف رياض الحسن يسلم نورها
فصدر العلى من قبله بعده صفر
وغارت نجوم الأفق وانكسف البدر
وليث الوغى فلتبكه البيض والسمر
عليه وتنعا المعارف والفخر
هو العابد الأبواب والشفيع
والوتر
عليه وفي الخراب يعرفه الذكر
على حلها من غيره عجز الفكر
ولا غرو فضل الله ليس له حصر
ومعقولها متن ومن حفظه النثر
ولكنه في موته هلك الدهر
جل ولو أن السماء له قبر
به أنه كمنز لها ولنا
ذخر
وإلا فقولاً لي متي نجس البحر
وصاحبه المعروف والجود والبر
ونودي ضاع العلم والنهى
والأمم
لديه علوم الدين يحيى لها
الذكر
ويحيى ومن أسلافه يعقب العطر

فأكسبك التأدب حسن طبع
أبوك الناس كل الناس طرا
له علماء مصر وأهل فاس
وجاء الحوض واكتسب المعالي
وبيتك في ولاتة خير بيت
وهذا ما شهدت به عليكم
إلى آخر المقطوعة

وأكسبك العلوم من اجتنابها
تقصر دون غايته مداها
مهابة علمه خلعت لواها
وأيقظ للضلالة من كراها
وقد رفع البيوت من ابتناها
ولو خان الشهادة من دراها

كتبه حسني بن الفيه في
1986/02/01

النشاط التأليفي:

.. لم يكن رحمه الله الذي لا يضيع أجر الصالحين يكف عن التأليف لا في طعنه ولا في إقامته. فقد وقف أيامه كلها لطلب العلم وتبليغه والمنافحة عن الدين والرد على المبتدعين فيه.

وقد بدأ نشاطه التأليفي في سن 17، حيث نظم معاني الحروف من كتاب مغني اللبيب، وشرح ألفية السيوطي في سن 18، لتتري مصنفاته بعد ذلك إلى أن تصل إلى 110 مصنفا حسب ما يقول نجله محمد الحسن 44 في منظومة نقشت على قبره:

هذا ضريح من ————— علم الشريعة انتشر
فقها ومنقــولا ومعقــولا كتاب
ألف في حيــاتــة مائة سفر وعشر

وزار قبر المصطفى في البيت حج واعتـمـر
قاضي القضاة كلهم من بالعدالة اشتهر
محمد الله عنه وغفر

وفي الجدول التالي نبين حسب الموضوع أهم المؤلفات التي عثر عليها لمحمد يحيى الولاى:

نظم الناسخ والمنسوخ وشرحه

تمهيع الرشد والصواب لمعرفة مصطلح حديث النبي الأواب

نور الحق الصبيح في شرح أحاديث الجامع الصحيح

نظم في مصطلح الحديث

الرحلة الحجازية (رحلة الحج)

فتح الودود على مراقي السعود (علم الأصول)

نيل السؤل على مرتقى الأصول الى علم الأصول 1291 هجرية (علم الأصول)

حل المشكلات لاختصار الموافقات للشاطبي (الأصول)

المجاز الواضح (القواعد)

الدليل الماهر الناصح (شرح المجاز الواضح) : قواعد الفقه

البحر الطامي ذو اللجج على بستان فكر المنهج (قواعد الفقه)

شرح مختصر ابن أبي جمرة

حسام العدل والإنصاف بشأن اتباع الأعراف

مصباح الفقيه في أن الظالم أحق أن يحمل عليه

شرح ورقات إمام الحرمين (أصول الفقه)

منبع الحق والتقى الهادي الى سنة النبي المنتقى

العروة الوثقى الموصل إلى منبع الحق والتقى

الأجوبة الواضحة لمن يدعي الاجتهاد فاضحة

- الرد على الحسن العظفي (نسبة إلى الطريقة العظفية)
نصيحة أولاد الزوايا والطلبة عن الدخول في طريق زنادقة المتصوفة الجهلة الكذبة
المواهب التليدة في حل ألفاظ الفريدة (شرح الفريدة في النحو)
مرتع الجنان على عقود الجمان في علم البيان
شرح النقاية في البيان
تعليق على منظومة له في التصريف
كشف الكروب
الرسالة المفحمة وللجهال ملجمة
منهج الأبرار في رد من حكم باسترقاق الأحرار
تأليف في تاريخ مقدم الشرفاء الأدارسة للمغرب
شرح الحصن الحصين
سلم الفوز والنجاة في الحياة وبعد الممات
الرسالة الهادية والنصيحة الوافية لمن يراها من مؤمني البادية في جعل الرباعية ثنائية
مكتوب في بطلان جمعة ولاته
الرد على أسئلة أعمار ذكر العشرة
الرد على رسالة لتلميذ الشيخ محمد فاضل مقتضاها توهين السنة ونفي القياس
نقض حكم أفتى به قاضي ولاته
فتوى في شأن زكاة غلة الإبل
فتوى في زكاة الأحباس
كتاب بشأن الأحباس ردا على أحمد بن أحمد الصغير
فتوى بشأن تداول الإمامة بالوراثة
فتوى بشأن القتل خطأ شبه عمد
فتوى بشأن توريث ذوي الأرحام

- فتوى بشأن قتل غيلة
فتوى بشأن ما يحرم من الرضاع
فتوى بشأن شراء العصمة من الزوج
فتوى بشأن رهن تصرف فيه المرهون إليه
فتوى بشأن اللصوص
فتوى بشأن قتل من أهل بودبوس
فتوى ردا على اعتراض أهل ولاتة حول جمعتهم
أجوبة أحمد الصغير في التيمم
رد على الشيخ ابن حامن بشأن بيع الملح بالمذهب
فتوى في إباحة الإفتاء
فتوى في الشركة بين الأخوين
فتوى بشأن ضياع الوثيقة في الدين
فتوى في الهبة واستثناء ذكور نسلها.